المجتمع. وهذا التأهيل خاضع دوماً لإعادة تأهيل[٣٨]. هذه هي ديناميـة المجتمـع وتطوره الدائم والمستمر.

من هذا التفاعل مع البيئة، وضمنها، يستقي سعادة مفهومه للمتحد الاجتماعي الذي يقتصر في شكله البسيط على قرية صغيرة. وهذه، تختلف عن قرية مجـاورة لها لأنها من متحد مختلف. ويصل في شكله المركّب إلى المجتمع الذي هو أتمّ متحد. وبين الاثنين متحدات تصغر كلما اقتربت من القرية الصغرى، وتكبر كلما اقتربت من المجتمع التام بتمام بيئته الطبيعية. وهذا ما ينتج بالضبط عن اعتبار البيئة الطبيعية السبب الأساسي في تميّز المجتمعات الانسانية بانتماءاتها، صغُرت هذه المجتمعات (المتحدات) أم كبُرت.

وبهذا الانتماء تتوفر عوامل التفاعل والاشتراك في الحيـاة الواحـدة علـى هـذه البقعة الطبيعية من الأرض، على هذه البيئة. فتتحول وبهذا التفاعل بالذات من بيئـة طبيعية إلى متحد اجتماعي انساني. والمتحد بهذا المعنـى، وحسـب سـعادة، هـو "مجمّع الحياة الاجتماعية، هو مقر الأحياء المتحدين في الحياة بكل مصالحها".

إن المزاوجـة بيـن الاقليـم كبيئـة طبيعيـة، وبيـن نشـاطات المقيميـن فـي هـذا الاقليم، وواقعهم الاجتماعي - التاريخي المؤسَّـس علـى هـذا الاقليـم، هـي التـي حفّزت على نشوء فكرة القومية، كشعور ووعي بالانتماء إلى بيئة محـدّدة. وهـي نفسها التي أوصلت مجتمعات كثيرة إلى اعتبار نفسها متفوّقة على غيرها كنتيجـة للمزاوجـة المحكّمـة بيـن "الاجتمـاعي" و"الاقليمـي". كذلـك كـانت الجغرافيـا الاقليمية سبباً مباشـراً لنشـوء الجغرافيـا السياسـية (جيوبوليتـك)، وهـي نـوع مـن المزاوجة بين الجغرافيا الاقليمية بعنصريها الطبيعي والبشري مع المسألة السياسـية وتطلعات الدول الاستراتيجية. وهذا ما سيكون موضوع فصل لاحق.

٣٨- المرجع نفسه، ص: ٦٨.

المبحث الأول

علم الجغرافية وتطوره وفروعه

* الجغرافية من أقدم العلوم وأكثرها شمولاً واتصالاً بكثير من العلوم الأخـــرى. وتوسعت المعلومات الجغرافية بعد قيام الرحلات البحرية التجارية على يد المصريـــين القدماء والفينيقيين والإغريق والرومان.

وعنيت الدراسات الجغرافية عند الإغريق بوصف المظاهر الكونية والفلكيـــة. فقد اهتموا بدارسة الأرض ووصف البلدان والمجموعة الشمســـية وخطـــوط الطـــول ودوائر العرض ومواقع النجوم والأجرام السماوية الأخرى.

وخلفوا لنا تراثاً جغرافياً مهماً مثل (كتاب الجغرافيا) لبطليمـــوس و (كتـــاب الجغرافيا) لاسترابو.

وقسم الإغريق علم الجغرافيا إلى قسمين رئيسين: هما الجغرافيـــة الوصفيـــة وكانت أشبه بالجغرافية الإقليمية في الوقت الحاضر، ثم الجغرافية الفلكية أو الرياضيـــة التي تعالج مركز الأرض بالنسبة للكون، أما الجغرافية البشرية فلم يكـــن لهـــا مركـــز ملحوظ عندهم.

* وتطورت المعرفة الجغرافية تطوراً كبيراً على يد العرب، إذ قام الرحالة العـــرب باكتشاف مناطق جديدة من العالم لم تكن معروفة من قبل – أو كانت معلوماتنا عنـــها قليلة – ودون الجغرافيون العرب معلومات جغرافية اتصفت إلى حد كبير بالدقـــة، وان

كانوا قد اخذوا عن الإغريق بعض آرائهم الفلكية. ويصح أن نشير في هذا المجال إلى بعض الجغرافيين أمثال ابن خرداذبه في كتابه (المسالك والممالك) الذي أضاف إلى معلوماتنا الجغرافية وصفاً لبعض مناطق الشرق الأقصى، واليعقوبي في (كتاب البلدان)، وياقوت الحموي في (معجم البلدان) والاصطخري في (المسالك والممالك)، والمسعودي في (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، وابن حوقل في كتاب (صورة الأرض)، والمقدسي في (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) والادريسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وغيرهم[1].

وقد ساعد العرب على كشف سواحل إفريقيا الغربية، كما ساعدوا على كشف المناطق الداخلية من إفريقيا حتى خط الاستواء، وسواحل إفريقيا الشرقية حتى مدغشقر.

وقد نمت المعلومات الجغرافية على يد الرحالة المعروف (ماركوبولو) Marco polo الذي كشف النقاب في القرن الثالث عشر الميلادي عن كثير من أجزاء آسيا[2]. ثم أتت حركة الكشوف النشطة في أواخر القرن الخامس عشر والتي كان من نتيجتها كشف الأمريكيتين على يد الأسبان وكشف طريق راس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين، كما كشفت المناطق الداخلية من قارتي أمريكا وآسيا وأجزاء من استراليا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومع مرور السنوات اللاحقة اكتشفت

---

(1) أحمد نجم الدين (وآخرون) الجغرافية البشرية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي / جامعة بغداد – كلية الآداب. مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩، ص ٥-٦ ، أيضا: محمد رشيد الفيل، وفؤاد محمد الصقار، أصول الجغرافية البشرية، ط١، منشورات وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ص ٩-١٠.

(2) Marco Polo, The travels of Marco Polo, Printed by Van Rees Press, New York ity, 10th.ed. 1932, Many Pages.

مناطق أخرى، وصحب كشف هذه المناطق معرفة الكثير من الأقاليم وعن سكانها البدائيين مما زاد من الاهتمام بالدراسات الجغرافية وباظهار التأثيرات المتبادلة بين البيئة والإنسان. كما ان الملاحة والمساحة الأرضية قد تطورت هي أيضا مما زاد من اتساع الآفاق الجغرافية[١].

ومع ان جذور الجغرافية، بوصفها حقلاً دراسياً، ترجع إلى العصور القديمة الكلاسيكية فان ظهورها علماً حديثاً لم يكن إلا خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٧٥٠-١٨٥٠ وذلك بالمساهمة الفعالة التي أبداها كل من الكسندر فون هومبولت Humboldt (١٧٦٩-١٨٥٩) وكارل ريتر Ritter (١٧٧٩-١٨٥٩) في ألمانيا لهذا الحقل من حيث مادته وطرقه. إذ تحولت الجغرافيا من تكديس وجمع للمعلومات الوصفية العامة عن الطبيعة والبشر إلى حقل فلسفي يعتمد على الملاحظة والتحليل[٢]. ويسمى النصف الثاني من هذه الفترة بـ (الفترة الكلاسيكية) للجغرافيا. ومما لا ريب فيه ان الإنجازات الفائقة التي حققها كل من الرجلين، اللذين عملا في نفس الفترة ولكن بمناهج متباينة جداً، وتأثير كتاباتهما على الجغرافية اللاحقة بأجمعها، تبرر اعتبارهما من الأساتذة الأول للجغرافية الحديثة[٣].

وبهذا يعد كل من هومبولت و ريتر أول من وضع اللبنة الأولى لأسس الجغرافية

---

(١) أحمد نجم الدين (وآخرون)،مرجع سابق، ص٦.

(٢) عبد الرزاق عباس حسين، الإطار النظري للجغرافية، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧٠، ص ٦-٧.
أيضا ناجي عباس، تطور الفكر الجغرافي الحديث، مجلة كلية الآداب بغداد، العدد الرابع، ١٩٦١، ص ٢٩٣ وما بعدها.

(٣) ريشارد هارتشورن، طبيعية الجغرافية، ج١، ترجمة د. شاكر خصباك، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة بغداد، مطابع جامعة الموصل/ مديرية مطبعة الجامعة، ١٩٨٤، ص ٤٨.

الحديثة، فقد اهتم كل منهما بدراسة الظواهر البشـــرية لســـطح الأرض وعلاقتـــها بالظواهر الطبيعية[1]. وإذا كان لجغرافيي أواخر القرن الثامن عشر الفضل في تطويـــر الجزء الأكبر من المفاهيم النظرية لعلم الجغرافيا الحديث، فان تحويل أفكارهم وأهدافهم ورغباتهم إلى حقائق، كان إلى حد كبير من إنجاز همبولت وريتر[2].

وظهرت خلال القرن التاسع عشر عدة مدارس تهتـــم بالجغرافيـــة الحديثـــة كالمدرسة الألمانية والإنكليزية والفرنسية والأمريكية والروسية. ولكـــل مـــن هـــذه المدارس وجهة نظرها وفلسفتها وروادها في هذا العلم وطرقه، كما أنها تأثرت جميعـــاً بالمدرسة الألمانية وتفاعلت معها[3].

والميادين التي تتناولها الجغرافيا في دراستها هي الإنسان وبيئته، حيث اصبـــح التركيز يقع على العلاقات بين عناصر البيئة ونشاطات الإنسان والآثار المتبادلة بينهما. أي ان التأكيد يقوم على أساس تفسير وتحليل جوانب الظواهر وخصائصها وأنماطـــها وأشكالها وليس مجرد وصف تقليدي لهذه الظواهر.

وكانت التعريفات التقليدية للجغرافيا تركز على دراسة سطح الأرض. وهـــي استمرار للمعنى الذي تحمله كلمة (جغرافية) بالإغريقية وتعـــني وصـــف الأرض[4]. وهناك من عدها (التبيؤ الإنساني)[5] أو (علم ارتباط الإنســـان بالبيئـــة) Human

---

(١) حسن طه النجم (وآخرون)، البيئة والإنسان: دراسة في الأيكولوجيا البشرية، ط٢، دار البحـــوث العلميـــة، الكويت، ١٩٧٨، ص ٢٥.

(٢) ريشارد هارتشورن، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٣) عبد الرزاق عباس حسين، مرجع سابق، ص ٧.

(4) John W. Alexander, Economic Geography, Prentice, Hall, Inc. Englewood Cliffs, New Jersey, 1963, P.8.

(٥) حسن طه النجم (وآخرون) مرجع سابق، ص ٢٦.

Ecology أي دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة. وهو اصطلاح استخدمه هكسلي Huxley [١] وكذلك (باروز) Barrows حيث يرى ان لكل بيئة ظروفها الخاصة وعلى الإنسان ان يتكيف وفقاً لها[٢].

وعرفت الجغرافيا أيضا على أنها دراسة العلاقات المكانية Spatial Relationships وينظر إليها تعريف آخر على أنها دراسة اختلاف وتباين الظواهر على سطح الأرض[٣]. ويعرفها ميل " Mill " بأنها علم التوزيعات ويرى بان كل ظاهرة طبيعية كانت أم بشرية يمكن توزيعها على خريطة العالم – أو المنطقة – تدخل ضمن نطاق علم الجغرافيا[٤].

وعلى أساس التباين الإقليمي يقوم تعريف "الكسندر" John W. Alexander حيث يرى ان الجغرافيا هي " الميدان الذي يدرس ويحلل التباين المكاني من فترة لأخرى على أساس المناطق (الأقاليم) ودراسة العلاقات بين التباينات المكانية أو الإقليمية للظواهر الطبيعية والبشرية على سطح الأرض[٥]. وعلى الأساس السابق أيضا يقوم تعريف الدكتور علي محمد المياح حين يذكر بان الجغرافية هي (ذلك القسم من العلم الذي يهتم بدراسة النواحي الإقليمية لموضوعات الأرض وعلاقاتها الإقليمية

---

[١] محمد رشيد الفيل، وفؤاد محمد الصقار، مرجع سابق، ص ٨

[2] H.H. Barrows, " Geography as Human Ecology", Annals of the Association of American Geographers, 1923, Vol. 13, PP. 1-4.
أيضا: S.R. Eyre and G.R.J. Jones (editors), Geography as Human Ecology.

[٣] حسن طه النجم (وآخرون)،مرجع سابق، ص ٢٦.

[٤] محمد رشيد الفيل، وفؤاد محمد الصفار، مرجع سابق، ص ٨.

[5] John W. Alexander. Op. Cit, P.8.

بموضوعات أخرى)[1]. ولهذا التعريف مضمونات منطقية بالنسبة لطبيعة المشكلات الجغرافية:

١. ان هذا التعريف يعني بان الظواهر الجغرافية تحدث في إطار إقليمي لا في تتابع زمني.

٢. ان الظواهر التي تثير اهتمام جغرافي متعددة وتتعقد ارتباطاتها مما يربو على إمكانيات الباحث، ولذلك فان هناك ضرورة تستلزم تحديد المشكلة[2].

كما يعرف الدكتور حسن طه النجم (وآخرون) الجغرافية بأنها (علم يهتم بوصف دقيق ومنظم ومعقول للخصائص المتغيرة على سطح الأرض، ثم تفسير وتحليل أسباب هذا التباين والتغير)[3].

والاختلاف في التعريف وارد في جميع العلوم الاجتماعية الأصولية بصفة عامة، وبصفة خاصة في علم الجغرافيا، وذلك لشمولية علم الجغرافيا وغمق فلسفته كما ذكر هارتشورن[4].

ومع اختلاف التعريفات فان معظم الجغرافيين يتفقون على ان علم الجغرافية

---

(١) علي محمد المياح، " طبيعة المشكلة الجغرافية"، مجلة الأستاذ ، بغداد ، المجلد الثامن، ١٩٦٠ ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) نفس المرجع، ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) حسن طه النجم (وآخرون)، مرجع سابق، ص ٢٦.

(4) Richard Hartshorn, The Nature of Geography , Annals of the Association of American Geographers, Vol. XXIX. No.3 and 4, 1939, Third Printing, Pennsylvanian 1949, pp.418-428.

عن: عبد الله علي الصنيع، أضواء على مفاهيم الجغرافيا الاجتماعية والحضارية: دراسة في الفكر الجغرافي، نشرة دورية رقم ٦٩ صادرة عن جامعة الكويت، سبتمبر ١٩٨٤، ص٦.

يتضمن دراسة البيئة الطبيعية والإنسان والتفاعل المشترك بينهما على أساس ان كلاً منهما يؤثر على الآخر ويتأثر به. ومعنى ذلك ان الجغرافيا تدرس البيئة الطبيعية مع ربط كل من المظاهر الطبيعية والبشرية بعضها ببعض. وعلى هذا الأساس فالجغرافية هي علم العلاقات المكانية لمختلف الظواهر (الطبيعية والبشرية والاقتصادية) وتباينها وتحليلها[1].

ويمكن تقسيم الجغرافيا بمعناها العام إلى قسمين رئيسين: يدرس الأول منهما البيئة الطبيعية، ويدرس القسم الثاني النواحي البشرية، ويدخل القسم الأول تحت نطاق الجغرافيا الطبيعية التي تنقسم إلى فروع كثيرة أهمها الجغرافية الفلكية والفيزيوغرافيا والجيمورفولوجيا والمناخ والجغرافيا الحيوية (النبات والحيوان) وجغرافية التربة والموارد المائية والبحار والمحيطات وما إليها. أما القسم الثاني فيدخل تحت نطاق الجغرافية البشرية التي تنقسم إلى كثير من الفروع أهمها جغرافيا السلالات البشرية والجغرافية الاجتماعية والحضارية وجغرافيا السكان وجغرافيا المدن والعمران والجغرافيا الاقتصادية والسياسية وغيرها.

---

[1] عباس فاضل السعدي، دراسات في جغرافية السكان، منشأة المعارف بالإسكندرية، سلسلة الكتب الجغرافية رقم ٤٦، مطبعة أطلس، القاهرة، ١٩٨٠، ص٧.

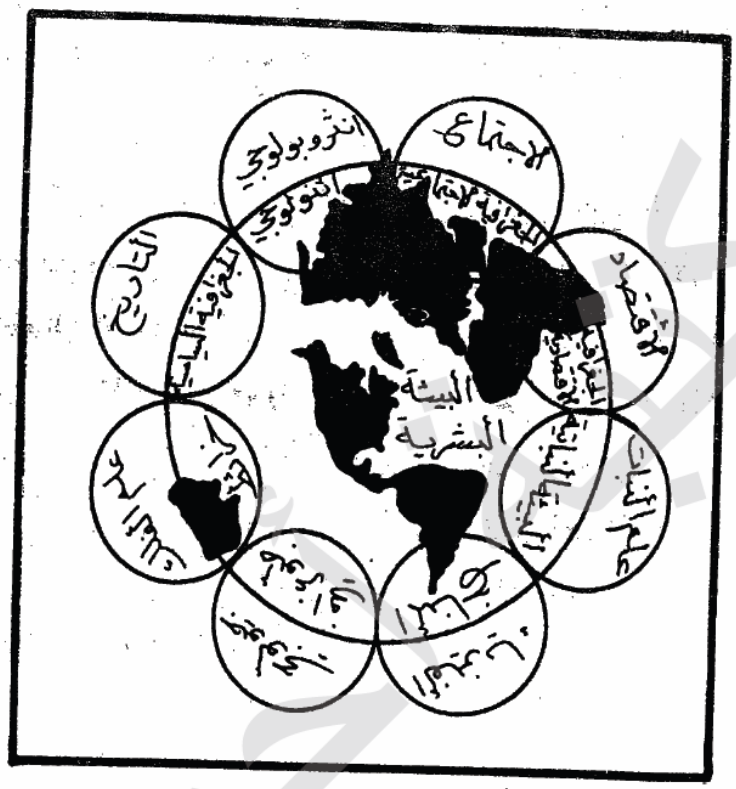

شكل رقم (١/١) علاقة الجغرافية بالعلوم البيئية والبشرية

المصدر: G. Taylor, P.18.